"أثر القراءات القرآنية في الإعجاز البياني للقرآن الكريم "

الدكتور الشريف مرزوق

جامعة أم البواقي، الجزائر.

تاريخ الارسال2019/09/08	تاريخ القبول2019/11/02	تاريخ النشر2019/12/28

ملخص :

لقد خدم علماء البيان جوانب الإعجاز التعبيري المختلفة التي تتعلق بالقراءات القرآنية المتواترة ، وكتبوا في روعة نظمها وأسلوبها وجمالياتها.

ومن المعلوم أن الهدف الرئيس من تعدد القراءات القرآنية واختلافها هو التيسير ورفع الحرج عن الأمة في قراءة القرآن الكريم، ولكن إلى جانب هذا الهدف احتوت ظاهرة التنوع في القراءات جوانب أخرى أعطت للنص القرآني تميزه و سموه على الكتب السماوية الأخرى وعلى النصوص البشرية مهما كانت ، مما استحق أن يتصف هذا القرآن الكريم بالإعجاز. ومن بين هذه الجوانب تعدد المعاني بتعدد القراءات، إذ كل قراءة زادت معنى جديدا لم تبينه القراءة الأخرى، وتفتح أمام قارئها المتذوق لها روضة من المعاني والدلالات ، وبهذا اتسعت المعاني بتعدد القراءات. كما أن القراءات القرآنية تزيد الصورة الفنية تعبيرا وإشراقا وتوصيفا وخاصة في القصص القرآني.

وفي هذه الدراسة سنحاول معالجة الموضوع من خلال العناصر التالية:

- مفهوم القراءات القرآنية.
- أقوال العلماء في تعدد القراءات القرآنية.
- فوائد القراءات القرآنية.
- أثر القراءات القرآنية في الإعجاز البياني من خلال بعض النصوص.
- أثر القراءات القرآنية في تعدد المعاني من خلال بعض الأمثلة.
- أثر القراءات القرآنية في التصوير الفني من خلال بعض المشاهد.

الكلمات المفتاحية : القراءات القرآنية- الإعجاز- المعاني- التصوير الفني.

مقدمة :

القرآن الكريم معجزة الله الخالدة وحجته البالغة، وهو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ومن بديع إعجازه، أنه كتاب لا تنقضي عجائبه، ولا يمل منه القارئ والسامع والباحث. ومن مظاهر إعجاز القرآن الكريم القراءات المختلفة، والتي كانت محل اهتمام العلماء والباحثين منذ قديم الزمان، من مختلف الزوايا كالتشريعية واللغوية والتفسيرية.

أولا : تعريف القراءات والقرآن

1 - تعريف القراءات :

أ - لغة : جمع قراءات، وهي مصدر قرأ قراءة وقرآنا بمعنى : تلا تلاوة، وهي في الأصل بمعنى الجمع والضم، تقول: قرأت الماء في الحوض أي : جمعته فيه، وسمي" القرآن " قرآنا لأنه يجمع الآيات والسور ويضم بعضها البعض[1].

ب - اصطلاحا : عرفها القراء بتعاريف متعددة، ومنها تعريف الإمام (ابن الجزري)، وهو من أحسن التعاريف جمعا وشمولا، فقد عرفها-رحمه الله- بقوله : " علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة "[2].

وعرفها الشيخ (عبد الفتاح القاضي الأزهري) (ت 1403هـ) بقوله : " هو علم يعرف به كيفية النطق بالكلمات القرآنية، وطريقة أدائها اتفاقا واختلافا مع عزو كل وجه لناقله "[3]

2 - تعريف القرآن:

أ - لغة : مشتق من مادة (ق ر أ)، وهو مصدر مرادف للقراءة، على وزن (فعلان) بضم الفاء، وهذا اللفظ يستعمل للمعاني التي استعمل لها لفظ (قراءة) وهي :

* الجمع والضم، ومنهم قولهم: "ما قرأت هذه الناقة سلى قط" أي ما حملت جنينا قط.

* التلاوة، وهي ضم الألفاظ بعضها إلى بعض في النطق، ومنه قوله تعالى : **(إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18))** (سورة القيامة 17-18) ، أي تلاوتها[4].

ب - اصطلاحا : ذكر له العلماء عدة تعريفات، ولعل أشهرها : "هو كلام الله تعالى المعجز المنزل بواسطة جبريل عليه السلام على محمد - ﷺ - المحفوظ في الصدور، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس" [5]. وبتأمل المعنيين اللغوي والاصطلاحي يظهر لنا وضوح الصلة بينهما، فالقرآن سمي بهذه الاسم لكونه جامعا للسور والآيات والأحكام والأخبار، أو لكونه مجموعا في المصاحف والصدور، أو لأنه جامع لثمرة الكتب السابقة، أو لجمعه فنون المعاني والحقائق والحكم والحكام والعلوم، أو لأنه متلو بالألسن.

ثانيا : أقوال العلماء في تعدد القراءات القرآنية:

ذهب جمهور علماء المسلمين إلى أن الاختلاف في القراءات هو اختلاف تنوع وتغاير، لا اختلاف تضاد وتناقض، وأن الاختلاف حاصل في الألفاظ المسموعة، وليس في المعاني المفهومة، وبهذا صرح (المهدوي) حين عرض لحديث النبي-ﷺ-:"أنزل القرآن على سبعة أحرف" رواه البخاري ،إذ قال:" واختلف الناس في معنى الحديث اختلافا كثيرا فأكثرهم على أن معناه في الألفاظ المسموعة لا في المعاني المفهومة "[6]

قال العلامة (ابن الجزري) : " قد تدبرنا اختلاف القراءات كلها فوجدناه لا يخلو من ثلاثة أحوال :

أحدها : اختلاف اللفظ والمعنى واحد. الثاني : اختلافهما جميعا مع جواز اجتماعهما في شيء واحد.

الثالث : اختلافهما جميعا مع امتناع جواز اجتماعهما في شيء واحد، بل يتفقان من وجه آخر لا يقتضي التضاد.فأما الأول : فكالاختلاف في الصراط والسراط، عليهم (بكسر الهاء وعليهم (بضم الهاء)، يحسب (بفتح السين) ويحسب (بكسرها) ونحو ذلك مما يطلق عليه أنه لغات فقط. وأما الثاني، فنحو (مالك وملك) في الفاتحة، لأن المراد في القراءتين هو الله تعالى، لأنه مالك يوم الدين وملكه...وأما الثالث: فنحو(**وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا**) (يوسف 110) بالتشديد والتخفيف... فأما وجه تشديد (كذبوا) فالمعنى : وتيقن الرسل أن قومهم قد كذبوهم، ووجه التخفيف : وتوهم المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما اخبروهم به، فالظن في الأولى يقين، والضمائر الثلاثة للرسل. والظن في القراءة الثانية شك، والضمائر الثلاثة للمرسل إليهم. ثم قال : "فليس في شيء من القراءات تناف ولا تضاد ولا تناقض، وكل ما صح عن النبي-ﷺ- من ذلك فقد وجب قبوله، ولم يسع أحدا من الأمة رده، ولزم الإيمان به، وأن كله منزل من عند الله، إذ كل قراءة منها مع الأخرى بمنزلة الآية مع الآية يجب الإيمان بها كلها، وإتباع ما تضمنته من المعنى علما وعملا، لا يجوز ترك موجب إحداهما لأجل الأخرى ظنا أن ذلك تعارض"[7].

وقال (الزرقاني) في مناهل العرفان: "فإن تنوع القراءات يقوم مقام تعدد الآيات، فالاختلافات في القراءات لا تؤدي إلى تناقض في المقروء وتضاد، بل القرآن كله على تنوع قراءاته، يصدق بعضه بعضا، ويبين بعضه بعضا، ويشهد بعضه لبعض، ومعنى هذا أن القرآن يعجز إذا قرئ بهذه القراءة، ويعجز أيضا إذا قرئ بهذه القراءة الثانية، ويعجز أيضا إذا قرئ بهذه القراءة الثالثة، وهلم جرا، ومن هنا تتعدد المعجزات بتعدد تلك الوجوه والحروف"[8].

فكل قراءة توضح وتبين معنى جديدا لم تبينه القراءة السابقة، وبذلك تتسع المعاني وتتعدد بتعدد القراءات، إذ كل قراءة بمقام آية، وفي ذلك يقول (ابن عاشور) : " على أنه لا مانع من أن يكون مجيء ألفاظ القرآن على ما يحتمل تلك الوجوه مراد الله تعالى، ليقرأ القراء بوجوه فتكثر من جراء ذلك المعاني، فيكون وجود الوجهين فأكثر في مختلف القراءات مجزءا عن آيتين فأكثر، وهذا نظير التضمين في استعمال العرب، ونظير التورية والتوجيه في البديع"[9].

ثالثا : فوائد القراءات القرآنية

يعد علم القراءات من أشرف العلوم منزلة، وأرفعها مكانة، لأنها كلام الله تعالى وهو القرآن، وهو مصدر جميع علوم الشريعة خصوصا، وعلوم العربية عموما، ويحتاج إليها : المقرئ، والمفسر، والمحدث، والفقيه، واللغوي على السواء. ويبين ذلك الإمام (شهاب الدين القسطلاني) بقوله : " القرآن ينبوع العلوم ومنشؤها، ومعدن المعارف ومبدؤها، ومبنى قواعد الشرع وأساسه، وأصل كل علم ورأسه، والاستشراف على معانيه لا يتحقق إلا بفهم رصفه ومبانيه، ولا يطمع في حقائقها التي لا منتهى لغرائبها ودقائقها إلا بعد العلم بوجوه قراءاته، واختلاف رواياته، ومن ثم صار علم القراءات من أجل العلوم النافعات، وإذا كان كل علم يشرف بشرف متعلقة، فلا جرم خص أهله، الذين هم أهل الله وخاصته، بأنهم المصطفون من بريته، والمجتبون من خليفته، وناهيك بهذا الشرف الباذخ، والشرف الراسخ، مع ما لهم من الفضائل اللاحقة، والمنازل السابقة، فمناقبهم أبدا تتلى، ومحاسنهم على طول الأمد تجلى"[10].

وتتجلى أهمية ومكانة علم القراءات من خلال نظرنا في آثارها وفوائدها، فبالقراءات تثرى الأحكام التشريعية الفقهية، وترجح الأوجه التفسيرية الأخرى، والشواهد النحوية والصرفية، ومنها تتجلى أوجه إعجاز القرآن الكريم، ويبرز سمو بلاغته وفصاحته، واشتمال القرآن الكريم على القراءات المتعددة ميزة لا نظير لها في الكتب السماوية السابقة.

ومن أبرز الحكم والفوائد في اختلاف القراءات، والتي بينها (ابن الجزرى) وغيره :

1 - أنها فيها دليل قاطع على أن القرآن الكريم كلام الله **(تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ** (2) **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ**(3)) (السجدة 2-3)

وأكبر برهان وأعظم حجة في ذلك هو عدم وجود أي تناقض أو تضاد في الوجوه المختلفة، ويجب أن يعلم أن الاختلاف الواقع في القراءات يرجع كله إلى اختلاف التنوع لا اختلاف التضاد، فإن اختلاف التضاد محال أن يكون في كلام الله تعالى : **(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)**.(النساء : 82)

2 - أن فيها برهان قاطع على صدق الرسول -ﷺ- فبرغم تعددها وتنوع الأداء فيها، أداها كما نزلت عليه.

3 - أن للقراءات ثراء في معاني القرآن، فالألفاظ فيه منتقاة من جوامعها وأغناها دلالة.

4 - التيسير على الأمة في أمر القراءة والتخفيف عنها، روعي في ذلك اختلاف اللغات واللهجات، كما روعي في ذلك جميع الفئات.

5 - سهولة الحفظ وتيسير النقل، فحفظ كلمة واحدة ذات وجوه مختلفة أيسر من حفظ جمل من الكلام على وجه واحد.

6 - بيان المجمل وتوضيح المبهم.

7 - تعد حجة لأهل الحق، ودفعا لأهل الأهواء، كما في قراءة **(إِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا)** (الانسان: 20)، فعلى قراءة شاذة: ملكا (بفتح الميم وكسر اللام) أعظم دليل على رؤية الله تعالى في الآخرة.

8 - إظهار إعجاز القرآن بإيجاز الكلام، فتقرأ كلمة واحدة بأكثر من وجه وهي برسم واحد، فتدل كل قراءة على حكم شرعي دون تكرار اللفظ وإعادة الخط، نحو **(وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْ ن)** (المائدة: 6) ، فقراءة النصب في (وأرجلكم) بفتح اللام تدل على فرضية الغسل، وقراءة الجر تدل على جواز المسح على الخفين.

9 - فيها تمثيل للغات واللهجات العربية المختلفة، وبذلك حفظت القراءات القرآنية اللغة العربية من الضياع والاندثار.

10 -بيان عظمة الأمة، حيث تلقت القرآن الكريم بالحروف المختلفة، ووعتها، وأحكمت ضبطها، وهي ميزة عظيمة تنفرد بها عن سائر الأمم.

11 -أن فيها سندا للقواعد النحوية والصرفية، كما في قوله تعالى : **(وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ)** (النساء: 1)، بالنصب في الأرحام، وبالخفض، فقراءة النصب حجة للكوفيين، وقراءة الخفض حجة للبصريين.

12 -أن لها تأثير في الأحكام الفقهية :

أ - فقد تبين حكما مجمعا عليه، كما في قراءة شاذة (وله أخ أو أخت من أم) فكون الإخوة من أم أمر مجمع عليه.

ب - قد ترجح حكما مختلفا فيه.

وقد تجمع بين حكمين مختلفين، كقراءة (ولا تقربوهن حتى يطهرن) بالتخفيف أو بالتشديد، فقراءة التخفيف تدل على أصل الطهارة، وذلك بانقطاع الحيض، وقراءة التشديد تشير إلى التأكد من الطهارة، وذلك بالاغتسال، فينبغي الجمع بينهما.

13 -بيان حفظ كتاب الله من التبديل والتحريف مع كونه مشتملا على الحروف والأوجه الكثيرة **(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَوَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)** . (الحجر:9)

إن القراءات كلها معجزة، والتحدي قائم بكل حرف من تلك الحروف، وبذلك تتعدد المعجزات بتعدد القراءات، وبيان المعاني، والأحكام الشرعية منها.

رابعا : أثر القراءات القرآنية في الإعجاز البياني من خلال بعض النصوص

المثال الأول:

قال عزوجل : **(مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ).**(هود: 27)

اختلف القراء في قوله " بادى " فقرأ الجمهور بالياء، وقرأ أبو عمر بالهمز.

أما قراءة الجمهور فمعناها[11]. اتبعوك في ظاهر رأيهم. وفرق بين الإنسان عندما يعطى قراره بعد ما وعاه من ظاهر الأمور التي يتعامل معها، والإنسان صاحب القرار السريع الخفيف، فالحكم المبني على الظاهر قد يستدعي التأمل في هذا الذي ظهر له من الأمر، وتقليب وجهات النظر، والتشاور مع الآخرين، وهذا لا يتوافر في القرار المبني على بادى الرأي، وما يحمله من الطيش والتهور.

من هذه القراءة نخلص إلى أن اتهام المؤمنين من قوم نوح ناجم على أنهم حكموا ظاهر الأمر، وما بدا لهم فيه.

أما قراءة الهمز " بادىء " فهي اسم فاعل مشتق من بدأت بكذا، ومعناها أول الرأي، والبادئ : المبتدئ. ومبتدأ الرأي : أوله، لأنه اذا ابتدأ في الظهور فهو الأول[12].

وفي ضوء هذه القراءة ينقل لنا السياق موقف قوم نوح على طريقة التصوير الفني الدقيق، فهم قوم عمهم الغيظ، وشحنتهم البغضاء، فكانوا يختلقون الأكاذيب والإشاعات على هذا النبي الكريم؛ ليقللوا من شأن دعوته، ويزهدوا الناس فيها، فمن أولئك الذين اتبعوه؟ إنهم أولا أراذل القوم، وسفلتهم، وهم ثانيا اختاروا طريقك يا نوح، من غير أن يتقدموا نحو أغوار الفكر والتأمل أشواطا بعيدة، فرأيهم إن كان فطيرا فلا عجب يا نوح، لأنهم لم يجربوك، ولم يخبروك.

قال (الفارسي) : " اتبعوك في أول الأمر من غير أن يتبعوا الرأي بفكر وروية فيه "[13]

وكثيرا ما يتهم الإنسان بصره الحسي عندما يفتحه بعد رقاد طويل، فإذا تأمل المشهد الذي هو فيه وأحاط به، عرف الحقيقة. إن هذه القراءة حملت اتهام قوم نوح لمن آمن بأنهم اتبعوا نوحا، من غير أن يتأملوا حقيقة دعوته؛ لأن هذا الإتباع ناجم عن أول الأمر ومبتدئه.

ومن التأمل في القراءتين يتبين لنا أن في كل منهما لونا من الاتهام، وطريقة من طرائق التعبير، وكل أولئك ينجم عن وقوع حرف مكان حرف آخر. وهؤلاء المؤمنون في نهاية الأمر- كما يراهم قومهم- طائشون يبنون صلتهم به على أساس من ظاهر الأمر الخالي من النظرة الكلية الشاملة، أو على أساس من أول الرأي الطائش، ولكل قراءة مذاق، وضرب من الاتهام.

المثال2

تعدد سورة الفاتحة بعض أسماء الله الحسنى : الرحمان الذي وسعت رحمته جميع الخلق، الرحيم بعباده المؤمنين، **(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ)** (الفاتحة4). وقد اختلف القراء في لفظة "مالك"، فقرأ عاصم والكسائي "مالك" وقرأ الباقون "ملك".

يفيد الجذر اللغوي "ملك" الشد والتماسك والقوة. جاء في (لسان العرب)[14]:"ملكت العجين أملكه ملكا، إذا شددت عجنه، وقويت عليه.

وتفيد اشتقاقات المادة هذه المعاني. وقد لاحظ علماء اللغة والتفسير أن لكل واحد من الوصفين : ملك ومالك، نوعا من الخصوصية والتميز، لا يتوافر في الآخر[15]

فالمالك يقدر على ما لا يقدر عليه الملك من التصرف بما هو مالك له، بالبيع والهبة والعتق، ونحو ذلك، كما أن الملك يقدر على ما لا يقدر عليه المالك، مما يعود إلى تدبير الملك وحياطته، ورعاية مصالح الرعية. وقد نبه (ابن خالويه)[16] على معنى أن المالك قد يكون غير ملك، ولا يكون الملك إلا مالكا.

أما قراءة "مالك" فهي اسم فاعل من "ملك" إذا اتصف بالملك، ومعناها : " أنه سبحانه المتصرف في الأعيان المملوكة كيف يشاء"[17]

كما تعني "مالك" صاحب الفضل الكثير، والتصرف يوم الحساب، فلا يليه غيره، وكونه سبحانه يملك الأحكام يوم الدين، وتسمح الصيغة بالإضافة إلى جميع الأشياء[18].

أما قراءة "ملك" فهي صفة مشبهة دالة على الثبوت، صارت اسما لصاحب الملك، وتشير إلى صفة المتصرف بالأمر والنهي في الجمهور[19]

ويرى الشيخ (ابن عاشور) [20]. أن قراءة "ملك" تفيد أن جميع صفات العظمة والكمال على اسمه تعالى، بعد أن وصف نفسه بأنه رب العالمين، وذلك معنى الإلهية الحقة، إذ يفوق ما كانوا ينعتون به آلهتهم من قولهم : إله بني فلان. ويضيف الشيخ : "أن ملك يوم الدين" هو وصف بما هو أعظم؛ لأنه ينبئ عن عموم التصرف في المخلوقات في يوم الجزاء، الذي هو أول أيام الخلود، فملك ذلك الزمان هو صاحب الملك الذي لا يشذ شيء عن الدخول تحت ملكه.

ومن مجموع القراءتين تجتمع لدينا دلالات ومعان على نحو يليق بجلاله وكماله سبحانه، فهو سبحانه يملك يوم الجزاء، فلا يليه غيره ولا يشركه فيه أحد، وهو المتصرف بفضله الواسع، المنفرد بالملك، وله جميع صفات الكمال.

المثال 3.

تشير الآيات الكريمة في سورة التكوير إلى صفحة سوداء من صفحات الجاهلية التي استغرقت حياة القوم في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وهي جريمة وأد البنات وهن على قيد الحياة، وهي عادة ذميمة أبطلها الإسلام .قال تعالى: **(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ(9))** (التكوير8-9).

قرأ الجمهور "قتلت"، وقرأ أبو جعفر "قتّلت" بتشديد التاء.

أما قراءة الجمهور فعلى أصل الإخبار بأن الفتاة الموءودة سوف تسأل يوم القيامة عن الذنب الذي اقترفته.

وأما قراءة أبي جعفر فعلى أن التشديد للتكثير، وهذا شيوع هذه العادة السيئة، ووقوع كثير من البنات البريئات ضحية لها، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، والقرآن الكريم بقراءاته المتواترة مصدر ثر موثوق من مصادر دراسة الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية قبل الإسلام؛ إذ إن هذه العادة قد ذاعت، وتعددت القبائل التي كانت تقترفها، وهذا التشديد في القراءة ينبئ عن ذلك.

خامسا : أثر القراءات القرآنية في تعدد المعاني من خلال بعض الأمثلة.

المثال1:

قوله تعالى: **(فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)** (البقرة10)

قرأ عاصم والكسائي وحمزة (يكذبون) بفتح الياء وتسكين الكاف وتخفيف الذال، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر(يكذبون) بضم الياء وفتح الكاف وتشديد الذال[21].

فالقراءة بالتخفيف معناها أنهم استحقوا العذاب الأليم بسبب كذبهم في إظهار الإسلام والإيمان وهم في باطنهم كافرون، فهم كاذبون في قولهم.

والقراءة بالتشديد معناها استحقوا العذاب الأليم بسبب تكذيبهم النبي- ﷺ -

فحاصل القراءتين أن المنافقين سيعذبون العذاب الأليم بسبب كذبهم وتكذيبهم. ففي القراءتين تنوع في المعاني، إذ بينت إحدى القراءتين أنهم كاذبون في أخبارهم، وبينت القراءة الأخرى بأنهم يُكذّبون النبي وما جاء به من عند الله تعالى، ومع هذا لا يقتضي هذا الاختلاف التضاد في المعنى، لأن المراد بهما هم المنافقون.

يقول شيخ الإسلام'ابن تيمية) : " في يكذبون قراءتان مشهورتان، فإنهم كذبوا في قولهم "آمنا بالله واليوم الأخر" وكذبوا الرسول في الباطن، وإن صدقوه في الظاهر "[22]. وبهذا فإن كل قراءة زادت معنى جديدا لم تبينه الآية الأخرى مع عدم التناقض والتضاد بينهما.

المثال2:

قال تعالى : **(وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (22)وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (23) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (24)وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (25))**. (التكوير22-25)

قرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة (بضنين) بالضاد، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس (بظنين) بالظاء [23].

فالقراءة بالضاد (بضنين) من الضنة وهي البخل، أي معناها ما هو على الغيب ببخيل،أما القراءة بالظاء(بظنين) فمن الظنة وهي الاتهام، أي ما هو على الغيب بمتهم.

قال (ابن خالويه) : " قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي (بظنين) بالظاء، أي بمتهم، يقال : بئر ظنين إذا كان لا يوثق بها.

وقرأ الباقون (بضنين) بالضاد، أي ببخيل، أي ليس بخيل بالوحي بما أنزل الله من القرآن فلا يكتمه أحدا، تقول العرب : ضننت بالشيء أضن به : إذا بخلت به،

وينشد : مهلا أعاذل قد جربت من خلقي إني أجود لقوم وإن ضننوا[24]

وبهذا يتحصل أن القراءتين وإن اختلف لفظهما فلم يتناقض أو يتضاد معناهما، بل تصدق بعضهما بعضا، وكل قراءة تزيد معنى جديدا تكمل به القراءة الأخرى، فالمراد بهذين القراءتين جميعا هو النبي - ﷺ -، وذلك أنه كان غير متهم فيما أخبر به عن الله تعالى وغير بخيل بتعليم ما علمه الله وأنزله إليه فقد انتفى عنه الأمران عنه جميعا، فاخبر الله تعالى عنه بهما في القراءتين.[25]

المثال3

قوله تعالى : **(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)** (البقرة 219)

فقرأ حمزة والكسائي (فيهما إثم كثير) بالثاء، وقرأ الباقون (إثم كبير) بالباء [26] فمعنى قراءة حمزة والكسائي من الكثرة، وذلك لأن شرب الخمر يحدث معه آثاما كثيرة من لغط وتخليط وسب وأيمان وعداوة وخيانة وتفريط في الفرائض وغير ذلك، فوصف بالكثرة.

أما معنى قراءة (إثم كبير) فهو من الكبر والعظم، أي فيهما إثم عظيم. يقول (مكي) : " أجمعوا على أن شرب الخمر من الكبائر فوجب أن يوصف لإثمه بالكبر"[27]

فحاصل القراءتين هو التأكيد على تحريم الخمر وذمها لعظيم إثمها وعقوبتها، وكذلك لكثرة آثامها، فلا تناقض بين القراءتين، لأنهما في ذم الخمر وتقبيح شاربها، فكل قراءة بينت أمرا هو فيها، وهو من باب اتساع المعاني الذي لا يقتضي التضاد والتباين، وكلتا القراءتين مراد الله تعالى.

سادسا : أثر القراءات القرآنية في التصوير الفني من خلال بعض المشاهد

يعد التصوير الفني في القرآن الكريم وجها من وجوه الإعجاز القرآني لما له من تأثير في النفوس، كما أنه يتناغم مع التعبير في القرآن، فهو(الأداة المفضلة في أسلوب القرآن. فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وه وتصوير حي منتزع من عالم الأحياء، لا ألوان مجردة وخطوط جامدة. تصوير تقاس فيه الأبعاد فيه والمسافات، بالمشاعر والوجدانات، فالمعاني ترسم وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية، أو هي مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة)[28]

ويمتاز التصوير الفني في القرآن بالصدق الواقعي، الذي يكمن في" جمال العرض، وتنسيق الأداء، وبراعة الإخراج "[29]

المثال1:

قال تعالى : **(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ)** (الأعراف : 40)تصور هذه الآية المعنى الذهني وهو عدم دخول الكفار الجنة مطلقا ، بطريقة بديعة تنقله لنا الصورة الفنية بتركيب فني يثير الغرابة والدهشة، وهي استحالة دخول الجمل أو الحبل الغليظ في ثقب الإبرة، رغم المحاولة والتكرار وتترك الصورتان معنى الرفض ومعنى الاستحالة، ليستقر في النهاية في أعماق النفس المتفاعلة مع التصوير. ولكن هذا المعنى يزداد إثارة وقربا بتعدد القراءات في قوله تعالى : (لَا تُفَتَّحُ)؛ فقد قرأ أبو عمرو (لَا تُفْتَحُ) بالتأنيث والتخفيف، وقرأ حمزة والكسائي وخلف (لا يُفتَحُ) بالتذكير والتخفيف، وقرأ الباقون (لَا تُفَتَّحُ) بالتأنيث والتشديد[30].

قال الأزهري : " من شدد فلتكثير الفتح، وكثرة الأبواب، ومن خفف فلتقليله، ويجوز هذا وهذا فيما يكثر ويقل " [31]. ومن هذه المعاني يجعلنا النص القرآني نرسم بخيالنا صورة للذين كفروا وهم منتظرون أبواب الماء الكثيرة الموصدة في وجوههم

رجاء أن تفتح لهم ولو مرة واحدة، ولكنها لا تفتح لهم مهما حاولوا لا مرة بعد أخرى، ولا حتى مرة واحدة، وكذلك أعمالهم التي عملوها في الدنيا لن تقبل منهم كثيرها وقليلها، فسيظلون منتظرين إلى أن يلج الجمل في سم الخياط.

المثال2:

قال تعالى : **(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ (15))** (الحجر 14-15)، قرأ ابن كثير(سكِرَتْ) بتخفيف الكاف، وقرأ الباقون : (سكّرَتْ) بتشديد الكاف [32] معنى (سكِرت) بالتخفيف سحرت، ووقفت، كما تقول سكرت الماء في النهر إذا وقفته، وبالتشديد (سكّرَتْ) سدت وأغشيت[33]. فقراءة التشديد أفادت أن أبصارهم سدت فما عادو يبصرون، وقراءة التخفيف بينت أن سد أبصارهم لم يكن محكما حتى يفقدو الإبصار نهائيا، بل أصبحوا يرون باختلاط وتغير كما يرى السكران أو المسحور [34]. فهذا نموذج للمكابرة والعناد البغيض للكافرين يخرجه القرآن ، ويصورهم يصعدون في السماء من باب يفتح لهم فيها فيصعدون بأجسامهم، ويرون الباب مفتوحا أمامهم، ويحسون حركة الصعود ويرون دلائلها، ثم هم بعد ذلك يكابرون ويقولون بأن ما رأوه مجرد تخيلات، وأنهم سحروا فرأوا ما ليس بشيء شيئا.

المثال3:

مشهد من مشاهد القصص القرآني يصوره اختلاف القراءات القرآنية؛ فقد تأتي قراءة في المفردة القرآنية تزيد في مقاطعها، فيؤدي ذلك إلى الزيادة في المشهد المعروض؛ فالتطويل في المفردة الواحدة، يزيد من زمن عرض الصورة أمام العيون، ويزيد أيضا من تأثيرها في النفوس.

ومثال ذلك كلمة (اسطاعوا) في مشهد قومي يأجوج ومأجوج وهم يحاولون الخروج من السد في قصة ذو القرنين.

قال تعالى : **(فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا)** . (الكهف97)

قرأ حمزة (اسطُاعوا) بتشديد الطاء، وقرأ الباقون (اسطاعوا) بتخفيف الطاء [35]. والاستطاعة القدرة على الشيء، وهي استفالة من الطوع، وذلك وجود ما يصير به الفعل متأتيا، وهي عند المحققين اسم للمعاني التي بها يتمكن الإنسان مما يريده من إحداث الفعل. واصل (اسطاعوا) استطاعوا بالتاء، ولاتحاد التاء والطاء في المخرج، حذفت التاء ليخف اللفظ[36].

أما (اسطَّاعوا) فاصلها أيضا استطاعوا وأدغمت التاء والطاء لأنهما أختان [37]. وبذلك جمع بين السين وهي ساكنة والتاء المدغمة وهي ساكنة أيضا. والتضعيف يقصد به المبالغة، كما أن تكرار الحرف إشارة إلى تكرار الحدث[38].

فقد صورت قراءة (اسطاعوا) بتخفيف الطاء الحالة التي كان عليها قوما يأجوج ومأجوج من عدم القدرة على اعتلاء الردم لملاسته، وصورت قراءة (اسطّاعوا) بتشديد الطاء انتفاء القدرة مطلقا في حق يأجوج ومأجوج على تسلق الردم، على الرغم من محاولاتهم المستمرة، فحروف الكلمة توحي بذلك؛ وذلك لأن اجتماع ساكنين في كلمة واحدة يوحي بسكون الحركة، وبذلك عجزوا عجزا شديدا عن علو الردم أو حتى تسلقه. كما أن وجود التشديد في حرف من حروف الكلمة يوحي بقوة الحرف وشدته، فما بالنا إذا اجتمع مع شدة النطق بالحرف صفة الشدة فيه؟ وبذلك تكون المشقة مضاعفة، والحركة أكثر بطئا وصعوبة.

وبذلك زاد اختلاف القراءات في اللفظة الواحدة من تصوير مشهد الحالة التي سيكون عليها قوما يأجوج ومأجوج حينما يحاولون تسلق الردم؛ فهم يحاولون التسلق بصورة من الفوضى فيسقطون، لذلك يتركون التسلق، ويعمدون إلى النقب فيه مرة تلو الأخرى، وبذلك يكون خروجهم عن طريق النقب عندما يشاء الله.

نتائج وتوصيات

1- الاختلاف في القراءات القرآنية يعد مظهرا من مظاهر الإعجاز البياني في القرآن.

2- الاختلاف في القراءات القرآنية اختلاف تنوع وتغاير، لا اختلاف تضاد وتناقض، وكل قراءة توضح وتبين معنى جديدا لم توضحه القراءة الأخرى.

3- مختلف القراءات القرآنية لها تأثيرها في تعدد المعاني والكشف عن التصوير الفني الرائع والدقيق في كتاب الله.

4- ثراء موضوع تأثير القراءات القرآنية في الاعجاز البياني وأهمية البحث فيه خدمة لكتاب الله تعالى وللأمة.

5- تخصيص مقاييس وتخصصات أكاديمية في هذا الباب على مستوى كليات اللغة والأدب العربي.

6- عقد أيام دراسية وملتقيات حول الموضوع.

الهوامش:

1- مجمل اللغة : 750.

2- منجد المقرئين ومرشد الطالبين : 9 .

3- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة : 7.

4- جامع البيان في تأويل القرآن : 94.

5- مناهل العرفان : 17.

6- الاختلاف في القراءات القرآنية وأثره في اتساع : 10.

7- النشر في القراءات العشر : 45.

8- مناهل العرفان في علوم القرآن : 132.

9- التحرير والتنوير : 55.

10- لطائف الإشارات لفنون القراءات : 6.

11- مجاز القرآن : 287.

12- الموضح في وجوه القراءات وعللها : 643.

13- الحجة للقراء السبعة : 317.

14- لسان العرب : 494.

15- فتح القدير : 22.

16- إعراب القراءات السبع : 47.

17- المغني في توجيه القراءات : 125.

18- إتحاف فضلاء البشر : 592.

19- مفردات ألفاظ القرآن : 774.

20- التحرير والتنوير الدار : 176.

21- الموضح في تعليل وجوه القراءات السبع : 257.

22- مجموع الفتاوى : 182.

23- النشر في القراءات العشر : 398.

24- إعراب القراءات السبع وعللها : 446.

25- الأحرف السبعة : 49.

26- النشر في القراءات العشر : 227

27- الكشف عن وجوه القراءات وعللها : 291.

28- التصوير الفني في القرآن : 36.

29- وظيفة الصورة الفنية في القرآن :51.

30- النشر في القراءات العشر : 269.

31- معاني القراءات : 405.

32- النشر في القراءات العشر : 301.

33- الحجة في القراءت السبع : 206.

34- القراءات وأثرها في التفسير والاحكام : 788.

35- النشر في القراءات العشر : 316.

36- معاني وإعرابه : 312.

37- حجة القراءات : 435.

38- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني : 42.